

لماذا لن تتراجع جماعة «الإخوان المسلمين»

أريك تراج

فورين أفييرز

11 تموز/يوليو 2013

بعد مرور عام واحد على وصول جماعة «الإخوان المسلمين» إلى سدة الحكم، وحيث أدى سلوكها الاستبدادي المتسلط خلال تلك الفترة إلى تنفير ملايين المصريين، عادت «الجماعة» إلى المربع الأول. فعلى مدار ستة عقود قبل انتفاضة عام 2011، كانت «الجماعة» جالسة في صفوف المعارضة، ومعرضة لهجوم نظام عسكري. بيد، تختلف الأمور هذه المرة؛ فبعد أن قامت قوات الأمن المصرية بعزل الرئيس محمد مرسي واحتجاز قادة «الإخوان»، وإصدارها مذكرات اعتقال بحق أكثر من 300 شخص كما أفادت التقارير، وإغلاق المحطة التلفزيونية لـ «الجماعة» وكذلك بعض مكاتبها، ثم قتل 53 وإصابة المئات في مظاهرة خارج مقر "الحرس الجمهوري" في القاهرة، لا يبدو أن «الإخوان» سينسحبون من المشهد بهدوء. فقد دعوا إلى قيام انتفاضة وتعهدوا مراراً وتكراراً بتصعيد احتجاجاتهم إلى حين يتم إعادة مرسي.

ويبدو أن إصرار «الإخوان» على مواصلة القتال يأتي إلى حد ما نتيجة رؤيتهم للأحداث على مدار الأسبوع الماضي. إذ تقول «الجماعة» إن مرسي كان رئيساً منتخبا وأمامه ثلاث سنوات أخرى في فترة ولايته. ومن ثم، تضيف بقولها بأنه يجب السماح له بإكمال مدة رئاسته ثم مواجهة الناخبين في الانتخابات القادمة، سواء كان رئيساً جيداً أم لا.

بيد أنه من الناحية التاريخية، كان «الإخوان» مستعدون لتقديم تنازلات، وإن بشكل مؤقت، بشأن تلك المبادئ عند مواجهتهم خصم لا طاقة لهم به. وفي حزيران/يونيو قال لي عبد الجليل الشرنوبلي، عضو سابق في «الجماعة» كان قد عمل في مقرها المركزي في الفترة 2005-2011 "كان لـ «الإخوان» سقف" -- لا نلمسه ونلعب أسفله". على سبيل المثال، أوضح الشرنوبلي أن الرئيس حسني مبارك كان هو السقف قبل انتفاضة 2011. فقد وضعت «الجماعة» حدوداً داخلية حول المدى الذي يستطيع معه أعضاؤها مهاجمة نظام مبارك. لذا فإن انتقاد بعض الوزراء كان أمراً لا غبار عليه. لكن مهاجمة مبارك شخصياً لم تكن أمراً مقبولاً، مع بعض الاستثناءات بين الفينة والأخرى. وأضاف الشرنوبلي، عقب الإطاحة بمبارك أصبحت واشنطن هي السقف، حيث كان «الإخوان» يخشون من أن مواجهة الولايات المتحدة بشكل مباشر حول مصالحها الرئيسية سوف يقود إلى استجابة مدمرة. ولهذا السبب لم يقم «الإخوان» بإلغاء معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل من عام 1979، رغم معارضتهم الواضحة للانفاقية ولوجود إسرائيل من الأساس.

وفي ضوء هذه الخلفية، ربما كان للمرء أن يتوقع أن ينظر الجيش إلى «الإخوان» باعتبارهم هم السقف حالياً. فالجيش في النهاية هو أقوى مؤسسة في مصر ويمكنه التغلب على «الجماعة». وعلاوة على ذلك، فخلال رئاسة مرسي، تعامل «الإخوان» مع الجيش أحياناً على أنه خارج نطاق السيطرة. فقد احترمت «الجماعة» استقلال الجيش وفضلته على مصالحها الاقتصادية الخاصة والقضايا الدفاعية، بل إنها رسخت ذلك الاستقلال في الدستور الذي صدق عليه مرسي بعجلة في كانون الأول/ديسمبر. بيد أن الأمر الجدير بالملاحظة هو أنه على الرغم من أن فرض «الإخوان» للفوز ضد الجيش تعد محدودة، إلا أنهم يبدو مستعدين لمواصلة الصدام لسببين.

أولاً، يشك أعضاء «الجماعة» في أن الجيش موحد ويؤيد الاستمرار في حملة القمع الجارية. وهم يرون احتمالية حدوث انشقاقات داخل صفوف الجيش حال تصعيد الجنرالات للعنف بصورة أكثر. ورغم أن تفكير الجيش المصري على المستويات الأدنى من الجنرالات يكتنفه الغموض، إلا أن التاريخ الحديث يعزز رهان «الإخوان». وعلى كل حال، فمن بين النظريات الأكثر معقولة بشأن إخفاق الجيش في إعطاء الأوامر بقمع المتظاهرين في "ميدان التحرير" أثناء انتفاضة 2011، أن الجنود المتمركزين في "الميدان" كانوا سيقبلون إطاعة الأوامر، الأمر الذي كان سيتسبب في حدوث فوضى. وسواء كان هناك الكثير من المتعاطفين مع «الإخوان» داخل الجيش أم لا -- ومن المستحيل معرفة ما إذا كان هناك متعاطفون أم لا -- فإن قادة الجيش المصري كانوا دائماً يواجهون خطر قيام الجنود، الذين يتم تجنيدهم من خلال عملية تجنيد عامة، برفض إطلاق النار على مواطنيهم. ويرى «الإخوان» كذلك أن حلفائهم داخل الجيش سوف يحاولون منع شن هجوم شامل ضد «الجماعة». ويقول المتحدث الرسمي باسم «الإخوان»، جهاد الحداد [إنهم [الجيش] يتحدثون إلينا بالفعل -- ليس على مستوى القيادات الدنيا فحسب، وإنما على مستوى القيادات العليا". وأضاف "يقولون لنا إن مرسي خبير. وقد اتصلوا بي بخصوص حاجة والدي [مستشار مرسي المحتجز عصام الحداد] إلى الدواء. وهم يطلعوننا على ما يجري".

ويحاول «الإخوان المسلمون» استغلال أي توترات داخل الجيش من خلال التمييز علانية بين الجنرالات الذين قاموا بعزل مرسي -- "الانقلابيين" كما أسماهم القيادي في «الجماعة» عصام العريان -- من المؤسسة الأوسع نطاقاً. على سبيل المثال، في بيان لهم يوم الأحد نسب «الإخوان» الانقلاب إلى "بعض أعضاء المجلس العسكري" لكنهم أكدوا "نحن نثق تماماً في جيشنا العظيم الذي يفدينا ونفديه وبحبنا ونحبه والذي لا يمكن أن يكون قد شارك في تلك المؤامرة". وعقب العنف المميت يوم الأحد خارج مقر "الحرس الجمهوري"، أصدر موقع «الجماعة» الإلكتروني تقارير حماسية عن الجنود الذين "رفضوا...إطاعة أوامر قادتهم بالمشاركة في المجزرة" زاعمين أن الجنود "رموا أسلحتهم على الأرض" احتجاجاً على ما جرى.

ثانياً، تعلم «الجماعة» أنها تستطيع الاعتماد على فيالق أعضائها، الذين يبلغ عددهم حوالي 250,000 شخص وفقاً للتقديرات المتواضعة، لمواصلة المخاطرة بحياتهم احتجاجاً على عزل مرسي. وبعد كل ذلك، فإن أيديولوجية «الإخوان المسلمين» تعظم الشهادة سعياً لأجندتهم الإسلامية، وشعارهم المحفور في صدر كل عضو من أعضاء «الجماعة» من خلال عملية التلقين الدينية التي تستمر بين خمس إلى ثماني سنوات، وتشمل عبارات من قبيل "الجهاد هو سبيلنا" و"الموت في سبيل الله أسمى أمانينا". والواقع أن هذه من نقاط فخر «الجماعة». ويقول الحداد [إنهم ليسوا كهؤلاء المتواجدين في «التحرير». عندما سمع الناس في رابعة [العدوية حيث يتظاهر «الإخوان»] صوت الرصاص، أقبلوا عليه، ولم يهربوا منه". ولهذا يؤمن قادة «الجماعة» أنهم يستطيعون الاستمرار في استدعاء جنودهم المترجلين طالما رأوا أن ذلك ملائماً.

لكن حقيقة أن «الإخوان» ينوون مواصلة القتال من أجل إعادة مرسي لا تعني بالضرورة أنهم سيفوزون. ففي النهاية، كلما طال مدة سعي «الجماعة» لمقاومة تدخل الجيش، زادت احتمالية استئصال رؤوس «الإخوان» بالكلية. فكبير خبراء «الجماعة» الاستراتيجيين، خيرت الشاطر، وكبير مسؤوليها السياسيين، سعد الكنانة، كانا من بين من تم اعتقالهم بالفعل، كما أن صدور مذكرات اعتقال بحق آخرين يشير إلى أن هناك عمليات اعتقال جماعية تجري التخطيط لها. وفي ضوء تركيز «الإخوان» واعتمادهم على ترتيب هرمي منظم بإحكام، فإن استئصال رؤوس

«الجماعة» قد يجعلها تتصرف بشكل ضال ومضطرب -- وربما أكثر عنفاً -- مما يعزز قمع الجيش ضدها. وعلى كل حال، فإن استئصال رؤوس «الإخوان المسلمين» يعني استبعاد أولئك القادة الذين يمكنهم عكس الاستراتيجية الحالية لـ «الإخوان» وتقرير أن الجيش هو، مرة أخرى، سقف «الجماعة».

لكن استطراداً في تلك النقطة، وسواء حدثت انشقاقات في صفوف قيادة الجيش أم لا، فمن غير المرجح أن تعدل القيادة من قرارها الأساسي شأنها في ذلك شأن «الجماعة»، لأن إعادة رئيس عزله القادة من السلطة سوف يمثل انتحاراً للجنرالات. ومن ثم فإن استمرار الاضطرابات المدنية هو أمراً حتمياً من الناحية العملية: فلكل من الجيش وجماعة «الإخوان» مصالح متنافرة، وهم على استعداد للقتال من أجل غير مسمى. وسوف ينتهي الصراع عندما ينهار أحدهما -- إلا إذا انهارت مصر أولاً.

إريك تراجر هو زميل الجيل القادم في معهد واشنطن.